



جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم علوم القرآن والتربية الإسلامية
الدراسات الأولية
للعام الدراسي ٢٠٢٥ - ٢٠٢٦

محاضرات السيرة النبوية

عنوان المحاضرة
كدحه في سبيل الرزق وزواجه من خديجة

من كتاب
(فقه السيرة النبوية)

المرحلة الثانية

مدرس المادة
أ.م.د. وسمي محمد احمد

رحلته الأولى إلى الشام ثم كدحه في سبيل الرزق

ولما تم له ﷺ من العمر اثنتا عشرة سنة ، سافر عمه أبو طالب إلى الشام في ركب للتجارة ، فأخذه معه . ولما نزل الركب (بصرى) مروا على راهب هناك يقال له (بحيرا) وكان عليمًا بالإنجيل خبيراً بشؤون النصرانية وهناك أبصر بحيرا النبي ﷺ ، فجعل يتأمله ويكلمه ، ثم التفت إلى أبي طالب فقال له :

ما هذا الغلام منك ؟

فقال : ابني (وكان أبو طالب يدعوه بابنه لشدة محبته له وشفقته عليه) فقال له بحيرا : ما هو بابنك وما ينبغي أن يكون أبو هذا الغلام حياً . فقال : هو ابن أخي . قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به . قال بحيرا : صدقت . فارجع به إلى بلده واحذر عليه يهود فوالله لئن رأوه هنا ليلبغنه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم . فأسرع به أبو طالب عائداً إلى مكة (٦) .

(٦) باختصار عن سيرة ابن هشام : ١٨٠/١ ورواه الطبري في تاريخه : ٢٨٧/٢ ورواه البيهقي في سننه وأبو نعيم في الحلية. ويوجد بين هذه الروايات بعض الخلاف في التفصيل ، وانفرد الترمذي بروايته مطولاً على نحو آخر ، ولعل في سنده بعض اللين ، فقد قال هو نفسه بعد أن رواه : (هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه) . وفي سنده عبد الرحمن بن غزوان قال عنه في الميزان : له مناكير ، ثم قال : أنكر ماله حديثه عن يونس بن أبي إسحاق ، في سفر النبي ﷺ وهو مراهق مع أبي طالب إلى الشام . وقال عنه ابن سيد الناس : في متنه نكارة (راجع عيون الأثر : ٤٣/١) . والغريب أن الشيخ ناصر الدين الألباني قال عنه - رغم هذا - في تحريجه لأحاديث (فقه السير) للغزالي : إسناده صحيح .. ولم ينقل من تعليق الترمذي عليه إلا قوله : هذا حديث حسن .. ومن عاداته أن يضعف ما هو أصح من هذا الحديث بكثير .. هذا وأما القدر المشترك من القصة فثابت بطرق كثيرة لا يلحقها وهن

ثم أخذ رسول الله يستقبل فترة الشباب من عمره فبدأ بالسعي للرزق وراح يشتغل برعي الغنم ، ولقد قال عليه الصلاة والسلام عن نفسه فيما بعد : « كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة »^(٧) . وحفظه الله من كل ما قد ينحرف إليه الشبان من مظاهر اللهو والعبث . قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن نفسه :

« ما هممت بشيء مما كانوا في الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمني الله بالرسالة . قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي بأعلى مكة : لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب ، فقال : أفعل ، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفاً فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : عرس ، فجلست أسمع ، فضرب الله على أذني ، فنمت فما أيقظني إلا حر الشمس ، فعدت إلى صاحبي ، فسألني فأخبرته ، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابني مثل أول ليلة ، ثم ما هممت بعده بسوء »^(٨) .

(٧) رواه البخاري .

(٨) رواه ابن الأثير ورواه الحاكم عن علي بن أبي طالب وقال عنه : صحيح على شرط مسلم . ورواه الطبراني من حديث عمار بن ياسر .

العبر والعظات :

يدل حديث بحيرا عن رسول الله ﷺ - وهو حديث رواه عامة علماء السيرة ورواها وأخرجه الترمذي مطولاً من حديث أبي موسى الأشعري - على أن أهل الكتاب من يهود ونصارى ، كان عندهم علم ببعثة النبي عليه الصلاة والسلام ومعرفة بعلاماته ، وذلك بواسطة ما جاء في التوراة والإنجيل من خبر بعثته وبيان دلائله وأوصافه . والدلائل على ذلك كثيرة مستفيضة.

فمنها ما رواه علماء السيرة من أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ويقولون : إن نبياً سبيحاً قريباً سنتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، ولما نكثوا عهدهم أنزل الله في ذلك قوله : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ [البقرة ٨٩/٢] .

وروى القرطبي وغيره أنه لما نزل قول الله تعالى : ﴿الذين آتيناهم الكتاب يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [النقرة ١٤٦/٢] سأل عمر بن الخطاب عبد الله بن سلام وقد كان كتابياً فأسلم : أتعرف محمداً ﷺ كما تعرف ابنك ؟ فقال : نعم وأكثر ، بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته فعرفته ، أما ابني فلا أدري ما الذي قد كان من أمه . ولقد كان سبب إسلام سلمان الفارسي تتبع خبر النبي ﷺ وصفاته من الإنجيل والرهبان وعلماء الكتاب .

ولا ينافي هذا أن كثيراً من أهل الكتاب ينكرون هذا العلم ، وأن الأناجيل المتداولة خالية عن الإشارة إلى ذكر النبي ﷺ . فمن المعلوم بالبداهة ما تقلب على هذه الكتب من أيدي التبديل والتغيير المتلاحقة . وصدق الله إذ يقول في محكم تبيان :

﴿ومنها أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون ، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ [البقرة ٧٨/٢ ، ٧٩] .

أما إقباله على رعي الأغنام لقصد اكتساب القوت والرزق ففيه ثلاث دلالات هامة :

الأولى : الذوق الرفيع والإحساس الدقيق للذات جعل الله تعالى بها نبيه محمداً ﷺ لقد كان عمه يحوطه بالعناية التامة ، وكان له في الحنو والشفقة كالأب الشفوق ، ولكنه ﷺ ما إن آنس في نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب ، ويجهد جهده لرفع بعض ما يمكن رفعه من مؤونة الإنفاق عن عمه . وربما كانت الفائدة التي يجنيها من وراء عمله الذي اختاره الله له ، فائدة قليلة غير ذات أهمية بالنسبة لعمه أبي طالب ، ولكنه على كل تعبير أخلاقي رفيع عن الشكر ، وبذل للوسع ، وشهامة في الطبع ، وبر في المعاملة .

الثانية : وتتعلق ببيان نوع الحياة التي يرتضيها الله تعالى لعباده الصالحين في دار الدنيا . لقد كان سهلاً على القدرة الإلهية أن تهئ للنبي ﷺ ، وهو في صدر حياته ، من أسباب الرفاهية ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح ورعاية الأغنام سعيّاً وراء القوت.

ولكن الحكمة الإلهية تقتضي منا أن نعلم أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بكد يمينه ولقاء ما يقدمه من الخدمة المجتمعه وبني جنسه ، وشر المال ما أصابه الإنسان وهو مستقل على ظهره دون أن يرى أي تعب في سبيله ، ودون أن يبذل أي فائدة للمجتمع في مقابله .

الثالثة : إن صاحب أي دعوة ، لن تقوم لدعوته أي قيمة في الناس إذا ما كان كسبه ورزقه من وراء دعوته أو على أساس من عطايا الناس وصدقاتهم ، ولذا فقد كان صاحب الدعوة الإسلامية أخرى الناس كلهم بأن يعتمد في معيشتة على جهده الشخصي أو مورد شريف لا استجداء فيه حتى لا تكون عليه لأحد من الناس منة أو فضل في دنياه فيعوقه ذلك عن أن يصدع بكلمة الحق في وجهه غير مبال بالموقع الذي قد تقع من نفسه .

وهذا المعنى وإن لم يكن قد خطر في بال الرسول الله ﷺ في هذه الفترة ، إذ إنه لم يكن يعلم بما سيوكل إليه من شأن الدعوة والرسالة الإلهية ، غير أن هذا المنهج الذي هياه الله له ينطوي على هذه الحكمة ويوضح أن الله تعالى قد أراد أن لا يكون في شيء من حياة الرسول قبل البعثة ما يعرقل سبيل دعوته أو يؤثر عليها أي تأثير سلبي ، فيما بعد البعثة .

وفيها قصه النبي ﷺ عن نفسه من خبر حفظ الله إياه من كل سوء منذ صغره وصدر شباب ، ما يوضح لنا حقيقتين كل منهما على جانب كبير من الأهمية :

الأولى : أن النبي ﷺ كان متمتعاً بخصائص البشرية كلها ، وكان يجد في نفسه ما يجده كل شاب من مختلف الميولات الفطرية التي اقتضت حكمة الله أن يجبل الناس عليها . فكان يحس بمعنى السمر واللهو ويشعر بما في ذلك من متعة ، وتحديثه نفسه لو تمتع بشيء من ذلك كما يتمتع الآخرون .

الثانية : أن الله عز وجل قد عصمه مع ذلك عن جميع مظاهر الانحراف وعن كل ما لا يتفق مع مقتضيات الدعوة التي هياه الله لها ، فهو حتى عندما لا يجد لديه الوحي أو الشريعة التي تعصمه من الاستجابة لكثير من رغائب النفس ، يجد عاصم آخر خفياً يحول بينه وبين ما قد تتطلع إليه نفسه مما لا يليق بمن هيأته الأقدار لتتميم مكارم الأخلاق وإرساء شريعة الإسلام .

وفي اجتماع هاتين الحقيقتين لديه ﷺ دليل واضح على أن ثمة عناية إلهية خاصة تسيره وتأخذ بيده بدون وساطة الأسباب المعروفة كوسائل التربية والتوجيه ، ومن ذا الذي يوجهه في طريق هذه العصمة وكل الذين حوله من أهله وبني قومه وجيرانه ، غرباء عن هذا الطريق ، ضالون عن هذه الوجهة ؟

لا جرم إذن أن هذه العناية الإلهية الخاصة التي جعلت الشباب النبي ﷺ طريقاً دقيقاً من النور يخر عباب ظلام الجاهلية ، من أعظم الآيات الدالة على معنى النبوة التي خلقه الله لها وهياًه لحمل أعبائها ، وعلى أن معنى النبوة هو الأساس في تكوين شخصيته واتجاهاته النفسية والفكرية والسلوكية في الحياة.

وكان من اليسير أن يولد الحبيب الأعظم الله ﷺ ، وقد انتزعت من نفسه كل هذه الدوافع الغريزية إلى التمتع بالشهوات والأهواء ، فلا يجد في نفسه ما يدفعه أصلاً إلى ترك أغنامه أمانة عند زميله ليهبط إلى بيوت مكة فيبحث بينها عن قوم يسمرون أو يلهون ويمرحون . غير أن ذلك لا يدل حينذاك على أكثر من شذوذ في تركيبه النفسي ، وهي ظاهرة يوجد لها نماذج في كل قوم وعصر ، وإذن فليس ثمة ما يدل على العناية الخفية التي تصرفه عما لا يليق رغم وجود الدوافع الغريزية نحوه . وإنما اقتضت حكمة الله عز وجل أن يتبدى للناس من هذه العناية الإلهية بالرسول الكريم ما يسهل عليهم أسباب الإيمان برسالته ويبعد عن أفكارهم عوامل الريب في صدقه.

تجارته بمال خديجة وزواجه منها

كانت خديجة - كما يروي ابن الأثير وابن هشام - امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه ، فلما بلغها عن رسول الله صدق الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق ، أرسلت إليه ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره ، ومعه غلامها ميسرة . وقد قبل محمد عليه الصلاة والسلام هذا العرض فرحل إلى الشام عاملاً في مالها ومعه ميسرة . فحالفه التوفيق في هذه الرحلة أكثر من غيرها ، وعاد إلى خديجة بأرباح مضاعفة ، فأدى لها ما عليه في أمانة تامة ونبل عظيم . ووجد ميسرة من خصائص النبي وعظيم أخلاقه ما ملأ قلبه ، دهشة له ، وإعجاباً به فروى ذلك لخديجة.

فأعجبت خديجة بعظيم أمانته ، ولعلها دهشت لما نالها من البركة بسببه ، فعرضت نفسها عليه زوجة بواسطة صديقتها (نفيسة بنت منية) ، فوافق النبي عليه الصلاة والسلام ، وكلم في ذلك أعمامه فخطبوها له من عمها عمرو بن أسد . وتزوجها عليه الصلاة والسلام وقد تم له من العمر خمسة وعشرون عاماً ولها من العمر أربعون .

وقد كانت تزوجت خديجة قبل زواجها من رسول الله ﷺ برجلين الأول منهما عتيق بن عائذ التميمي ، ثم خلفه عليها أبو هالة التميمي واسمه هند بن زرارة^(٩).

(٩) رواه ابن سيد الناس في (عيون الأثر) وابن حجر في الإصابة ، وغيرهما . وقد جرى خلاف في الأول منهما . والذي رجحه ابن سيد الناس ورواه قتادة وابن إسحاق أن الأول منها هو عتيق بن عائذ والثاني هند بن زرارة .

العبر والعظات :

أما عمله ﷺ في مال خديجة ، فهو استمرار الحياة الكدح التي بدأها برعي الأغنام ، ولقد شرحنا طرفاً مما يتعلق بذلك من الحكمة والعبرة .

وأما فضلها ومنزلتها في حياة النبي ﷺ فلقد ظلت لخديجة مكانة سامية عند رسول الله ﷺ طوال حياته ، وقد ثبت في الصحيحين أنها خير نساء زمانها على الإطلاق روى البخاري ومسلم أن علياً رضي الله عنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد » (١٠) .

وروى البخاري ومسلم أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « ما غرت على نساء النبي ﷺ إلا على خديجة ، وإني لم أدركها ، قالت : وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة فيقول : أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة قالت : فأغضبته يوماً فقلت : خديجة ! فقال رسول الله ﷺ : إني قد رزقت حبها » (١١) .

وروى أحمد والطبراني من طريق مسروق عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام ، فأخذتني العبرة فقلت : هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها ؟ فغضب ثم قال : « لا والله ما أبدلني الله خيراً منها : أمنت إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء » .

(١٠) الضمير في نسائها عائد - كما تدل رواية مسلم - إلى السماء بالنسبة لمريم وإلى الأرض بالنسبة لخديجة . وقال الطبري : الضمير الأول راجع إلى الأمة التي كانت فيها مريم ، والثاني إلى هذه الأمة ، وانظر فتح الباري :

٩١/٧

(١١) متفق عليه واللفظ لمسلم .

وأما قصة زواجه ﷺ منها ، فإن أول ما يدركه الإنسان من هذا الزواج هو عدم اهتمام الرسول الله ﷺ بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها ، فلو كان مهتماً بذلك كبقية أقرانه من الشبان لطمع بمن هي أقل منه سناً أو بمن ليست أكبر منه على أقل تقدير . ويتجلى لنا أنه ﷺ إنما رغب فيها لشرفها ونبلها بين جماعتها وقومها حتى إنها كانت تلقب في الجاهلية بالعفيفة الطاهرة .

ولقد ظل هذا الزواج قائماً حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاماً ، وقد ناهز النبي عليه الصلاة والسلام الخمسين من العمر ، دون أن يفكر خلاها بالزواج بأي امرأة أو فتاة أخرى ، وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزمن الذي تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية .

ولكن محمداً ﷺ تجاوز هذه الفترة من العمر دون أن يفكر كما قلنا بأن يضم إلى خديجة مثلها من الإناث : زوجة أو أمة ، ولو شاء لوجد الزوجة والكثير من الإماء ، دون أن يخرق بذلك عرفاً أو يخرج على مألوف أو عرف بين الناس ، هذا على الرغم من أنه تزوج خديجة وهي أيم ، وكانت تكبره بما يقارب مثل عمره .

وفي هذا ما يلجم أفواه أولئك الذين يأكل الحقد أفئدتهم على الإسلام وقوة سلطانه ، من المبشرين والمستشرقين وعبيدهم الذين يسيرون من ورائهم ، ينعمون بما لا يسمعون إلا دعاء ونداء ، كما قال الله عز وجل .

فقد ظنوا أنهم واجدون في موضوع زواج النبي مقتلاً يصاب منه الإسلام ويمكن أن يشوه من سمعة محمد ﷺ ، وتخيلوا أن بمقدورهم أن يجعلوه عند الناس في صورة الرجل الشهوان الغارق في لذة الجسد العازف في معيشته المنزلية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح .

ومعلوم أن المبشرين ومعظم المستشرقين ، هم الخصوم المحترفون للإسلام ، يتخذون القدرح في هذا الدين صناعة يتفرغون لها ويتكسبون منها كما هو معلوم . أما الأغرار الذين يسيرون من ورائهم ، فأكثرهم يخاصمون الإسلام على السماع والتقليد ، ولا يعنيه أن يفتحوا أذهانهم لبحث ولا فهم ، إنما هو هواية التقليد والاتباع ، فخصامهم للإسلام ليس إلا من نوع الشارة التي قد يعلقها الرجل على صدره لمجرد أن يعرف بها بين الناس انتماءه لجهة معينة ، ومعلوم أن الشارة ليست أكثر من رمز ، فخصومة هؤلاء للإسلام ليست سوى الرمز الذي يعلنون به عن هويتهم بين الناس : أنهم ليسوا من هذا التاريخ الإسلامي في شيء ، وأن ولاءهم إنما هو لهذا الفكر الاستعماري الذي يتمثل فيما يدعو إليه دعاة الاستعمار الفكري من مبشرين ومستشرقين . فهذا هو اختيارهم ، من قبل أي بحث ودون محاولة أي فهم ! .. أجل ، فإن مخاصمتهم للإسلام ليست إلا مجرد شارة يسمون بها أنفسهم بين قومهم وبني جلدتهم ، وليس عملاً فكرياً لقصد البحث أو الحجاج .

وإلا ، فموضوع زواج النبي ﷺ من أهون ما يمكن أن يستدل منه المسلم المتبصر ، العارف بدينه والمطلع على سيرة نبيه ، على عكس ما يروجه خصوم هذا الدين تماماً.

يريدون أن يلصقوا به ﷺ صورة الرجل الشهواني الغارق في لذات الجسد!.. وموضوع زواجه عليه الصلاة والسلام هو وحده الدليل الكافي على عكس ذلك تماماً. فالرجل الشهوان ، لا يعيش إلى الخامسة والعشرين من العمر في بيئة مثل بيئة العرب في جاهليتها ، عفيف النفس ، دون أن ينساق في شيء من التيارات الفاسدة التي تموج من حوله . والرجل الشهوان ، لا يقبل بعد ذلك أن يتزوج من أيم لها ما يقارب ضعف عمره ، ثم يعيش معها دون أن تمتد عينه إلى شيء مما حوله وإن من حوله الكثير وله إلى ذلك أكثر من سبيل ، إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب ، ثم الكهولة ، ويدخل في مدارج الشيخوخة .

أما زواجه بعد ذلك من عائشة ثم من غيرها ، فإن لكل منهن قصة ، ولكل زواج
حكمة وسبب يزيدان من إيمان المسلم بعظمة محمد ورفعته شأنه وكمال أخلاقه . وأياً
كانت الحكمة والسبب فإنه لا يمكن أن يكون مجرد قضاء الوطر واستجابة للرغبة الجنسية
، إذ لو كان كذلك لكان أخرى به أن يستجيب للوطر والرغبة النفسانية في الوقت
الطبيعي لهذه الرغبة وندائها .. خصوصاً وقد كان إذ ذاك خالي الفكر ليس له من هموم
الدعوة ومشاغلها ما يصرفه عن حاجاته الفطرية والطبيعية .